الزهد قيمة أخلاقية
في الشعر الأندلسي من الفتح حتى نهاية القرن 5هـ

أ. زينب خضراوي

جامعة الإخوة منتوري. قسنطينة

الملخص:

لقد كان للإسلام فضل كبير في نشر الفضائل الانسانية والقيم الأخلاقية في المجتمع الأندلسي، فمنذ ظهور الاسلام انتشرت في الربوع الأندلسية قيم أخلاقية كان لها أثرها الكبير في تقويم وتوجيه سلوك المجتمع تقويما صحيحا؛ وتعدّ قيمة الزهد أبرز هذه القيم التي أرسى الإسلام قواعدها، ومن هذا المنطلق؛ فإن هذا المقال يهدف إلى توضيح هذه القيمة، وتبيين مدى حضورها في الشعر الأندلسي من الفتح حتى نهاية القرن 5هـ.

Summary:

Islam has been greatly credited with spreading human virtues and moral values in Andalusian society, asceticismis the mostprominentIslam has itsrules, and inthissense, this article aims to clarifyThis value shows theirpresence in AndalusianpoetryfromconquestevenThe end of the 5th century AH.

لا يعزب عن الناظر في المعاجم اللغوية أن يجد أن الزهد لغة يقترن بالإعراض عن الشيء احتقارا له، وارتفاع الهمة عنه. ففي معجم مقاييس اللغة"(زهد) الزاء والهاء والدال أصلٌ يدلُّ على قِلّةِ الشيء. والزّهِيد: الشيء القليل. وهو مُزْهِدٌ: قليل المال. وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "أفضلُ النّاسِ مؤْمِنٌ مُزْهِدٌ" وهو المقِلُّ، يقال منه: أَزْهَد إِزْهَاداً. قال الأعشى:

فلَنْ يَطْلُبُوا سِرَّها للغِنَى ولن يسلِموها لإزهادها.

قال الخليل: الزَّهادة في الدُّنيا، والزُّهْد في الدِّين خاصة. قال اللِّحياني: يقال رجل زَهيدٌ: قليل المِطعَم، وهو ضيِّق الخُلُقِ أيضاً. وقال بعضهم الزَّهِيد: الوادي القليل الأخذ للماء. والزَّهَاد: الأرض التي تَسيلُ من أدنى مطر. وممّا يقرُبُ من الباب قولهم: "خُذْ زَهْدَ ما يكفِيكَ"؛ أي قَدْرَ ما يكفِيك"[1]. وهو خلاف الرغبة في الشيء.

أما إذا انتقلنا إلى المعنى الاصطلاحي فنجد أن العلماء والحكماء قد اتفقوا على علوِّ مكانه، وشرَف مقامه؛ بَيْدَ أنهم اختلفوا[2] في "تفسير المزهود فيه من الدنيا، فقيل: الدنيا والدرهم. وقيل المطعم والملبس والمسكن، وقيل الحياة"[3]، وقد كثرت في ذلك الأقوال وتنوَّعت العبارات.

ومن ذلك ما نجده في قول ذي النون المصري لما جعل الزهد "قصر الأمل، وحب الفقر، واستغناء مع الصبر"[4].

أما السّري السقطي فالزهد عنده يعني أن يخلو القلب مما خلت منه اليد[5].

وفي مقابل ذلك يرى الجنيد البغدادي أن "للزهد معنيان: ظاهر وباطن، فالظاهر بغض ما في الأيدي من الأملاك، وترك طلب المفقود، والباطن زوال الرغبة من القلب، ووجود العزوف والانصراف عن ذكر ذلك، فإذا تحقق بذلك رزقه الله تعالى الإشراق على الآخرة والنظر إليها بقلبه (...) فعندها خلص الإخلاص إلى قلبه لصفاء الزهد، وثبت الزهد لسقوط النفس"[6].

ومن خلال هذا التدرج الذي أوضحه الجنيد في تحقيق الزهد وثباته في القلب"تصبح صورة الزهد مختصة بالنفس ذاتها لا بالدنيا التي عليها الزهد فيها، وهذه الدلالة للزهد، تفتح آفاقا جديدة لمدلولاته، التي تتضمن التمثيل والتفسير بما يرمز إليه من قيم إنسانية"[7] وأخلاقية عالية.

وانطلاقا من هذه المفاهيم بدلالاتها المتنوعة، يمكن أن ننظر للزهد كقيمة دينية وخلقية في الآن نفسه، دينية؛ لأنها تمثل أعلى درجات الإخلاص لله سبحانه وتعالى طمعا فيما أعده الله للمخلص في الآخرة، وخلقية؛ لأنها تمثل أعلى درجات التضحية والبذل، ومن ثمة، فلا عجب، والحال هذه، أنّ نجد مفهوم الزهد يركز على هذين الجانبين؛ الجانب الديني يؤكد على الإخلاص، وجانب أخلاقي يؤكد على فكرة التضحية بكل جوانبها من عطاء وإنفاق وبذل وإحسان ومسامحة وكفاف ورضا بالقليل[8]، وغيرها من القيم التي لا تنفك متصلة بطبيعة الذات الإنسانية الخيرة.

وقد عرفت نزعة الزهد طريقها إلي بلاد الأندلس في وقت غير بعيد عن ظهورها في بلاد المغرب، ولم يكن نزوع الأندلسيين "إلى الزهد راجعا فقط إلى أن الحركات التي كانت

تظهر في المشرق الإسلامي تجد صداها في الجناح الغربي من عالم الإسلام، وإنما كان ذلك النزوع يرجع أيضا إلى عدة عوامل سياسية واقتصادية وثقافية ونفسية"[9].

هذا، ولم تكن نزعة الزهد في الأندلس نزعة سلبية بقدر ما كانت نزعة إيجابية "يهتم الزهاد من خلالها بشؤون هذا المجتمع، ويسهمون في حركته الحياتية، ويعنون بشؤون أفراده، وحياتهم، وأحوالهم، فكانوا يعلمون أهل الأندلس أمور دينهم ويفقهونهم في علوم الدين"[10]، مما ترك جميل الأثر في نفوس أهل الأندلس اتجاه هؤلاء الزهاد.

ومثلما عُرفت الأندلس بكثرة زهادها، عرفت أيضا بكثرة الشعراء الزهاد، وأقدم النماذج الشعرية التي حدثتنا عنها كتب التراجم والسير "تعود إلى فترة حُكم الحَكَم الرَّبضِي (180هـ-206هـ) ومن المؤكد أنّ فكرة الزهد كانت موجودة قبل هذا التاريخ، لكن الشعر الزهدي كان شحيحا قبله، وربما لم يصل إلينا"[11].

ويعدّ القول بالتأريخ لنشأة الشعر الزهدي في الأندلس بالتزامن مع فترة حُكم الحَكَم الرَّبضِي يعود لإحسان عباس لما قال: "أما شعر الزهد فقد ولد في أحضان الثورة على الحكم الربضي، إذ كان الأتقياء ينظمون أشعار الزهد ويتغنون بها في الليل ويضمنونها التعريض به"[12]، وهو الرأي الذي أخذه من صاحب المعجب حين ذكر غضب الزهاد وسخطهم من حُكم الحَكَم الرّبضي، قائلا: "وفي أيامه أحدث الفقهاء إنشاد أشعار الزهد والحض على قيام الليل في الصوامع، أعني صوامع المساجد، وأمروا أن يخلطوا مع ذلك شيئا من التعريض به، مثل أن يقولوا: يا أيها المسرف المتمادي في طغيانه، المصرّ على كِبره، المتهاون بأمر ربه، أفق من سكرتك، وتنبه من غفلتك"[13].

لكن، ومهما يكن من أمر، فإن الذي لا ينكره جاحد أن الأسباب التي ساهمت في ظهور تيار الزهد في بلاد الأندلس لا يتوقف على ما أشرنا إليه من سخط الزهاد على الحَكَم الربضي، بل إننا إلى جانب ذلك، نجد أسبابا ودوافع أخرى لها من الأهمية ما كان في تقوية شعر الزهد وتطويره، لعل أبرزها ما كان "ردا على الحياة اللاهية في المدن أو انقيادا لداعي التقوى في النفس أيام الشيخوخة كما في زهديات الغزال وممحصات ابن عبد ربه؛ وهي قصائد تكفيرية نظمها لينقض القصائد التي قالها في أيام الشباب"[14].

كما أعان على تقوية نزعة الزهد، التيار المشرقي – الذي كان رافدا أصيلا من الروافد التي أمدت شعر الزهد في الأندلس– وذيوع أشعار أبي العتاهية التي تأثر بها الأندلسيون بشكل كبير[15]، حتى أنهم فاقوا المشارقة في غزارته وتوليد معانيه، ورسم صوره القوية والمؤثرة.

هذا، ولا غرو أن "تمثل الدعوة إلى التحلي بالأخلاق النبيلة والآداب الإسلامية السامية اتجاها بارزا من اتجاهات شعر الزهد في الأندلس، فقد أذاع شعراء الزهد دعوة واسعة إلى القيم الخلقية، وانتصروا لها، وفاضت قرائحهم بقصائد شعرية عديدة فيها، وشكلت تلك الدعوة منطلقا أخلاقيا بارزا في أشعار كثيرة من زهاد الأندلس، وما دامت الحياة فانية، وكل شيء فيها إلى الزوال فلتكن، إذا، الأخلاق هي الزاد الذي يتزود به الزاهد في رحلة الحياة الدنيا والجسر الذي يعبر عليه إلى الآخرة"[16]، أملا في نيل رضا الله عز وجل.

وتعد أقدم النماذج الشعرية التي تتحدث عن هذا التوجه الأخلاقي ما ضمنه غريب بن عبد الله الطليطلي (ت207هـ) في شعره، حيث نجده في إحدى قصائده

الشعرية يذكر الخلق بحتمية الموت الذي لا مفر منه، وبعودة كل الأرواح إلى بارئها الذي تخضع له كل الرقاب، حيث يقول:

لَعَمْرُكَ مَا يَرُدُّ المَوْتَ حِصْنٌ إذا انْتَابَ الملوكَ ولَا حِجَابُ
لَعَمـــــرُكَ إنَّ مَحْيايَ ومَوْتِي إلَى مَلِكٍ تــذلُّ لَهُ الصِّعَابُ
إلى مــلـك يدوخ كل ملك وتخضع من مهـــابته الرقاب[17]

وغير بعيد عن هذا السياق نجد يحي الغزال (ت 250هـ) يقر بهذه الحقيقة داعيا الناس للتفكير والاتعاظ في الحالة الشعورية التي يكونون عليها حين يوضعون في الكفن، ويدرجون في اللحد، مصورا في ذلك الحالة التي يكون عليها مشيعوه، ومتخيلا لجو المرح عند بعضهم والحزن عند البعض الآخر، حيث يقول:

أنظر إليّ إذا أدرجت في كفـــــني وأنظرْ إليّ إذا أدرجتُ في اللّحد
وأقعد قليلا وعاين من يكونُ معي ممّن يشيع نعشي من ذوي ودِّي
هيهات كلهّم في شأنه لــعبٌيـرمي الترّاب ويحثُوه عـــــلى خدّي[18]

وفي قصيدة أخرى نجده يصور المقابر ومن فيها، فإذا أبصرتها لن تستطع أن تفرق بين فقير وغني، سيد وعبد، أنثى وذكر، فكلهم سواسية، حيث يقول معبرا عن ذلك:

لعمر أبيهم لو أبصـــــــروهم لما عـــــرف الغني من الفقير
ولا عرفوا العـــــــبيد من الموالي ولا عرفوا الإنـاث من الذكور
ولا من كان يلبس ثوب صوف من البـــــدن المباشر للحرير
إذا أكل الثرى هذا وهـــــــذا فما فضل الكبير على الحقير؟[19]

ولما كانت الحياة الدنيا في نظر يحي الغزال حياة فانية، ولحظة آنية، فعلى الإنسان ألا يغتر بخيرها ولا يحزن لشرها، فهي وإن طالت بسرائها أو بضرائها فانية لا محالة، فطوبى- في نظره – لمن هجرها ووصل الآخرة بعمل الخير، حيث يقول:

أخي عدّ مـــــا قاسيته وتقلـــبت عليك به الدنيا من الخير والشـــر
فهل لك في الدنيا سوى الساعة التي تكون بها السّراء أو حاضر الضر؟
فطوبى لعبد أخرج الله روحـــــــــه إليه من الدنيا على عمل الـــــبر[20]

هذا، ولا يخفى على أحد، أن الزهد يتضمن"كثير المعاني الإسلامية التي يصعب الفصل بينها فصلا دقيقا لاسيما المواضيع التي تتعلق بالوعظ الديني، والحث على الآداب والأخلاق الكريمة؛ ذلك لأنها تحث على ترك الدنيا والزهد فيها والإقبال على الآخرة والترغيب فيها"[21]، وهو ما يستشف من هذه الأبيات لابن عبد ربه(ت 328هـ)، يقول فيها:

أتلهو بينَ باطـــــيةٍ وزيـرِ وأنتَ مـــنَ الهلاكِ على شفيرِ؟
فيا مَنْ غـــــرَّهُ أَمَلٌ طـويلٌ به يُـــــــــردى إلى أجلٍ قصيرِ
أتفـــــــرحُ والمنيَّةُ كـلَّ يومٍ تريـكَ مكـــانَ قبركَ في القبورِ؟
هِيَ الدُّنيا، وإنْ سَرَّتْكَ يَوْماً فـإنَّ الحُـــــزنَ عـاقبةُ السرورِ
سَتُسْـلبُ كُلَّ ما جَمَّعْتَ مِنْها بعـارية تـــــــــردُّ إلى مُعـيرِ
وتعتـاضُ اليقينَ منَ التـــظنِّي ودارَ الحـقِّ مِـــــنْ دارِ الغُـرورِ[22]

ففي هذه المقطوعة يستغرب ابن عبد ربه من الإنسان الذي يلهو ويشغل نفسه بالدنيا وملذاتها، وهو على حافة الموت، مؤكدا على أن العمر مهما طال فالنهاية هي الموت الذي لا مفر منه، ولما كانت الدنيا فانية فإن متاعها متاع إبتلاء واختبار، وعلى ذلك فهو يدعو للتمسك بدار الحق والابتعاد عن دار الغرور.

وحتى يؤكد ابن عبد ربه حقيقة هذا الزوال نجده يقول:

ما أطيـــــــــب العيش لولا أنه عـــــن عاجل كلـــــه متروك[23]

فالشاعر في هذا البيت يقر بالرغبة الملحة التي طُبع عليها ابن آدم في طلب الحياة، والتمتع بملذاتها لكن هذه الرغبة، وهذا الإلحاح على الحياة، يجعله في مواجهة ما يعكر هذه الرغبة، وهو الموت بما يحمله من دلالات الزوال والفناء.

وهذا المعنى المشار إليه سابقا هو نفسه الذي وقف عليه مُحَمَّد بن عبد الله بن ثَعْلَبَة الخُشَنِي (ت 286هـ) لما قال مذكرا بحقيقة الدنيا واعظا بزوال نعيمها:

أخي إنما الدنيا محـــــلةُ فـــــــرقةٍ ودارُ غـــــــرور آذنت بفراقِ[24]

فالدنيا في نظر الخشني مطبوعة على الفراق؛ لأنها دار الموت، ودار الغرور تغرّ الإنسان، وتخدعه بحلاوة عيشها، الذي سرعان ما يتلاشى ويزول.

ولطالما ارتبط الزهد" بالنفور من المعاصي والذنوب، التي ينتج عنها الرّهبة والخشية من سوء العاقبة، والتقصير في حق الله بسبب الغفلة، فيكون أول أثر للزهد، هو الإقلاع عن الذنوب والمعاصي والتوبة منها، وتنفير الناس من الوقوع فيها"[25]، ومما قيل في هذا

الجانب هذه الأبيات التي نجتزؤها من قصيدة لابن عبد ربه ينبه فيها الغافلين، الذين استبدلوا شقاء الدنيا بنعيم الآخرة، متسائلا في ذلك عمن تلهى حتى نبت الشيب على دمنته، ولم يزل في غفلته، حيث يقول:

إن الذين اشـــــتروا دُنيا بآخرة وشـــــقوة بنعيم ساء ما تجرُوا
يا من تلهى وشـــيب الرأس يندبه ماذا الذي بعد شيب الرأس تنتظرُ
لو لم يكن لك غير الموت موعظة لكـــان فيه عن اللذات مزدجر
أنت المقول له ما قـــلت مبتدئا هـــلا اتكرت لبين أنت مبتكرُ[26]

ومما نجده، أيضا، في هذا السياق، الأبيات التي قالها الأمير عبد الله بن محمد(ت 300هـ)، في تنبيه الغافلين عن طلب النجاة، قوله:

يا مـــــن يراوغه الأجل حتى يـــــلهبك الأمل
حـــــتام لا تخشى الردى وكأنه بـــــك قد نزل
أغفلـت عـــن طلب النجاة ولا نجـــــاة لمن غفل
هيـــهات يشغـــلك المنى ولما يـــدوم لك الشغل
فكـــأن يـــومك لم يـــكن وكأن نعيـــك قد نزل[27]

هذا، ويطالعنا زاهد طليطلة ابن العسال (ت487هـ) بأبيات زهدية لا تختلف عما عهدناه من زهد أقرانه الأندلسيين في تحذير الإنسان من أن يغتر بالدنيا وزخرفها، حيث يقول:

انظر الدّنيـــــا فإن أبـــ صرتها شيئاً يـــــــدوم

فاغد مـــــــــنها في أمانٍ إن يساعدك النعـــــــيم
وإذا أبـــــــــصرتها منـــ ـك على كـــــــرهٍ تهيم
فاسل عـــــنها واطّرحها وارتحـــــــل حيث تقيم[28]

وهو المعنى ذاته الذي وقف عليه السميسر الألبيري (ت484هـ) حين تأمل في حقيقة هذه الدنيا، وتيقن أن كل ما شيد عليها مصيره الخراب والزوال، قائلا:

جمـــــلّة الدّنيا ذهابُ مثلـــــــما قالوا سرابُ
والذي منـــــها مشيدٌ فخـــــــــراب ويبابُ
وأرى الدّهرَ بـــــخيلاً أبداً فيه اضـــــــطرابُ
سالبٌ ما هو مُعـــــطٍ فالذي يُعطي عـــذاب
وليوم الحشر إنعـــــا مٌ سؤال وجـــــــوابُ
وصراط مستقـــــــيم يوم لا يطوى كـــــتابُ
فاتّقِ الله وجنّـــــــبْ كل ما فيه حســــــابُ[29]

هذا، ويجد المطلع لديوان أبي إسحاق الإلبيري (ت 460هـ) أنه ممتلئ بعظات دينية تعكس تأملاته في الموت والحياة من جهة، وتبرر قناعته في رفض الدنيا والعمل للآخرة ومن جهة أخرى، ومن القصائد التي تحدث فيها الإلبيري عن الموت، ما يقوله:

كم آمن للمـــــــنون لاه عـــــن الردى بات مطمئنا
صبحه وافد المنـــــــــايا فـــــــعاين الموت حين عنا
حتى إذا ما قضى بكـــــاه حميـــــــــــمه معولا مرنا

واروه في لحده وســـــــنوا	العـــــليه قيد التراب سنا
وانتهبوا ماله وشـــــــــنوا	الغـــــارات فيما حواه شنا
لمثل هذا فكن مـــــــعدا	ما قد اعد الهـــــــداة منا
وارتقب الموت فــهو حتم	يخـــــــــترم الطفل والمسنا[30]

يتوجه الشاعر في هذه الأبيات إلى المشغول بالدنيا المستغرق فيها عن الآخرة، داعيا له الحذر من ملذاتها، ومذكرا له أنه سرعان ما يفاجئه الموت، سيبكيه أهله ويقتسمون ما أفنى حياته في جمعه، وعلى هذا فهو يدعوه إلى أن يستعد، ويعدّ العدة كما أعدها الهداة قبله لنيل مرضاة الله يوم الحساب.

ولما كان مشهد الفراق يرتبط ارتباطا وثيقا بمشهد الموت، فإن الإلبيري يستحضره في شعره، نادبا نفسه ومذكرا لها بالميعاد، قائلا:

كَأَنّي بِنَفسي وهي في السَكراتِ	تُعالجُ أَن تَرقــى إِلى اللهواتِ
وقَد زُمَّ رَحلي واستقلَّت ركائِبي	وقَد آذَنتـــني بالرحيلِ حُداتي
إِلى مَنزِلٍ فيه عذابٌ ورحمـــــةٌ	وَكَم فـيهِ من زَجرٍ لنا وعظاتِ
ومن أَعيُنٍ سالت على وجَناتِها	ومن أَوجُهٍ في التُربِ مُنعَفِراتِ
ومن وارِدٍ فيه على ما يَسُـــرُّهُ	ومـن وارِدٍ فيهِ على الحَسَراتِ[31]

ولما كانت رؤية الإلبيري للحياة على ما أشرنا إليه من احتقار وازدراء لملاذاتها الفانية، فإنه في مقابل ذلك نجده يحذر من الركون إليها والاغترار بها، ومن النماذج التي نستدل بها على وعظه ونصحه في نبذ الدنيا، قوله:

ولا تحزن على ما فات منها	إذا ما أنت في أخراك فزتـــا

فليس بنافع ما نلت فيهـــا من الفاني، إذا الباقي حرمت[32]

هذا، وإذا كانت الحياة الدنيا على هذه الحقيقة، فإن الإلبيري يتعجب من مسايرة الخلق لهوى النفس وميلها إلى الباطل، والغفلة عن طريق الحق، حيث يقول:

ما أمـــيل النفس إلى باطل وأهـــون الدنيا على العاقل

ترضي الفتى في عاجل شهوة لـــو خسر الجنة في الآجل

يبيع مـــــا يبقى بما ينقضي فعل السفيه الأحمق الجاهل[33]

استطاع الإلبيري في الأبيات أعلاه أن يعبر أصدق تعبير عما يجيش في صدره من عاطفة دينية، حين جعل مقارنة بين نزعتين تتجاذب الطبيعة الإنسانية، النزعة الشهوانية؛ التي تمثلها النفس في ميلها إلى الباطل، والنزعة الروحانية؛ التي تسموها إلى جوهرها الروحاني، فالإلبيري، هنا، يتساءل كيف يهمل الإنسان نفسه، ويستكين لهذه النزوات الدنيوية العارضة، مستبدلا إياها بنعيم الآخرة.

هذا، وقد كان لتجربة الإلبيري الزهدية أثر كبير في شعراء زمانه أو من أتى بعده، ويعد الزبيدي الإشبيلي (ت379هـ)، أبرز هؤلاء المتأثرين به، حيث كان شعره منصبا حول الزهد والآداب الأخلاقية، وما يتفرع عنهما من مواضيع أخرى من ذم للدنيا، وتحبيب للعلم، وحث على طلبه، وتحذير من هوى النفس وذم الحرص على جمع المال[34]، ومما قاله في التذكير بالموت:

لـو لم تكن نار ولا جنة للمـــرء إلا أنـــه يقبر

لكـان فيـه واعظ زاجـر ناه لما يسمع أو يبصر[35]

إن تذكير الزبيدي للخلق بحقيقة الموت في هذه الأبيات يكشف عن نوازعه الإيمانية، وأسرار نفسه الدفينة، إزاء هذه الحقيقة التي تعد نهاية حتمية لكل مخلوق، بأسلوب تقريري مباشر.

وغير بعيد عن هذا المنحى الوعظي الذي انتهجه الزبيدي، وعبر عنه في شعره، يظهر لنا ابن حزم الأندلسي (ت456هـ) بمظهر الحكيم الذي يدعو الناس إلى الزهد موضحا وناصحا لهم بأنّ الحياة الدنيا مؤقتة، ورحيلهم مؤكد، طالبا منهم أن يأخذوا العبرة من الأمم السابقة، حيث يقول:

فعجـــل إلى رضوان ربك واجتنب ـــــواهيه إذ قد تجلى منارها
يجدّ مـــــرور الدهر عنك بلاعب وتغرى بدنيا ساء فيك سرارها
فكم أمة قـــــد غرها الدهر قبلنا وهـاتيك منها مقفرات ديارها
تذكر على ما قد مضى واعتبر به فـــإنّ المذكي للعقول اعتبارها[36]

وتأكيدا لما قاله ابن حزم في الأبيات أعلاه، نجد ابن خفاجة (ت533هـ) يسير الاتجاه نفسه حيث يدعو إلى ترك المال، والتّعفف من ملذات الدنيا؛ لأن مصيرها الزوال، وهو ما عبر عنه قائلا:

ألا قانِعٌ من ملك كسرى بكسرةٍ فما الوجد إلا الخلد لا ما حبا كسرى
فما بالنـــا، والمال عرضة حـــادث تـــــــركنا مطايا الريح في إثره حسرى
وما الغيّ إلا أن يـــــعبدنا الهوى ولم نـــــــــدر جهلا أننا معشر أسرى[37]

ولما كان حرص ابن خفاجة التقليل من شأن الدنيا أملا في نيل عطاء الآخرة، فإنه كثيرا ما يُذكر في أشعاره بالجزاء والحساب، ومن الأمثلة التي نستدل بها على ذلك:

وكل مدين بمـــــا كان دان فثـــمّ الجزاء وثم الحساب
فلا تحر كفك مـــن مهراق بما لا يسر هـــناك الكتاب
فإنك يوما مجازي بـــــــه وإن يدا كتبتـــــــه تراب
ولا خطه غير إحـدى اثنتين إما نعيم وإمـــــا عذاب
فرحماك يا من عليه الحساب وزلفـاك يا من إليه المآب[38]

ففي هذه الأبيات نجد الشاعر يقرّ بأن كل مخلوق مدين بصنيعه، فإن فعل خيرا فهناك جزاء، وإن كان شرا فهناك حساب، ولما كانت الجنة والنار مقرونتين بصنيع الإنسان في دنياه، فإن ابن خفاجة يختم أبياته بالتضرع إلى الله طلبا للرحمة والغفران أملا في نيل الجنة.

وهو ما ذهب إليه ابن حمديس (ت527هـ) حين أدرك أن التضرع لله طلبا للعفو والمغفرة هو سبيل من سبل التقرب لله ونيل مرضاته، حيث قال:

أيا ربِّ إن الخـــلق لا ارتجيهمُ فـكل ضعيـــف لا يمر ولا يحـــــــلي
بحلمك تعفو عـــن تعاظم زلتي وفضلك عن نقصي، وحلمك عن جهلي[39]

ولعل الذي نخلص إليه، من خلال ما عرضناه من هذه النماذج الشعرية، أن الزهد كان موضوعا خصبا لدى الشعراء الأندلسيين، حيث جادت قرائحهم بشعر خلدّ ومجد مواقفهم، وسجل قيمهم التي يدعون إليها، ونشير هنا، أن هدفنا لم يكن تتبع جميع الأشعار، بقدر ما كنا نبغي من وراء ذلك، تسليط الضوء على بعضها لنتعرف من خلالها على تشبع هؤلاء الشعراء بالمعاني والقيم الأخلاقية التي بثها الإسلام في نفوسهم.

الهوامش والإحالات:

1- ابن فارس، مقاييس اللغة. تحقيق: عبد السلام هارون. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، دط، دت. ج3. ص 30.

2- عبد الله بن إبراهيم بن علي الطريقي، مفهوم الزهد بين الموسعين والمضيقين، ينظر الموقع الالكتروني https://www.alukah.net/sharia/0/34932/#ixzz5wNmFPuYO

3- التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون، تحقيق: علي دحروج. مكتبة لبنان ناشرون. بيروت، ط1. 1996. ج1. ص 914

4- وجدي أمين الجردي، خاطرات الصوفية بين دلالة الرمز وجمالية التعبير، منشورات كتاب/ ناشرون، بيروت- لبنان، 2018، ص 104

5- المرجع نفسه، ص 106

6- المرجع نفسه. ص 109.

7- المرجع نفسه. ص 110.

8- يوسف شحده الكحلوت، الأخلاق الإسلامية في الشعر الأندلسي عصر ملوك الطوائف، دن، دط، 2010، ص89.

9- محمد بركات البيلي، الزهاد والمتصوفة في بلاد المغرب والأندلس حتى القرن الخامس الهجري. دار النهضة العربية، القاهرة. دط. 1993. ص 53.

10- المرجع نفسه، ص 132-133.

11- منجد مصطفى بهجت، الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي في عهدي ملوك الطوائف والمرابطين، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، ص150.

12- إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي- عصر سيادة قرطبة، دار الثقافة، بيروت، ط1، 1960، ص 73-74.

13- عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق: صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط1، 2006، ص.24

14- إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي- عصر سيادة قرطبة، ص 74.

15- منجد مصطفى بهجت، الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي في عهدي ملوك الطوائف والمرابطين، ص 150-155.

16- عبد الرحيم حمدان حمدان: القيم الخلقية في شعر الزهد في الأندلس. ينظر الموقع الاكتروني: http://www.diwanalarab.com/spip.php?article14508

17- سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، تحقيق: شوقي ضيف، دار المعرف القاهرة، ط3، 1955، ج2، ص 23.

18- يحي بن الحكم الغزال، الديوان، تحقيق: محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ط1، 1993، ص 46-47.

19- المصدر نفسه، ص 61.

20- المصدر نفسه. ص 58

21- ناجية ناجي دخيل الله السعيدي: الزهد في الشعر الأندلي حتى آواخر القرن الثالث الهجري، مذكرة ماجستير(نخة الكترونية)، جامعة أم القرى. المملكة العربية السعودية.(دت). ص 90.

22- ابن عبد ربه، الديوان، تحقيق: محمد رضوان الداية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1979، ص 78.

23- المصدر نفسه، ص.128

24- أبو جعفر الضبي، بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1967، ص 104.

25_ الزهد في الاسلام، ينظر الموقع الالكتروني: https://www.alukah.net

26- ابن عبد ربه، الديوان، ص 71.

27- ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: ج.س. كولان وإ.ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت-لبنان، ط2، 1980، ج2، ص 155.

28- المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت-لبنان، ط1، 1997، ج3، ص 228.

29- ابن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت- لبنان، دط، 1997، ج1، ص 889.

30- أبو إسحاق الإلبيري، الديوان، تحقيق: محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر ودار الفكر، لبنان- دمشق، ط1، 1991، ص 142-143.

31- المصدر نفسه، ص 59-60.

32- المصدر نفسه، ص 29.

33- المصدر نفسه، ص 66.

34- منجد مصطفى بهجت، الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي في عهد ملوك الطوائف، ص 77.

35- المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج4، ص 342.

36- ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة، مكتبة عرفة، دمشق، دط، دت، ص 148.

37- ابن خفاجة، الديوان، تحقيق: السيد مصطفى غازي، منشأة المعارف، الإسكندرية، دط، 1960، ص 164.

38- المصدر نفسه، ص 213-214.

39- ابن حمديس، الديوان، تقديم: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ص 366.